

## الفصل الأول

الرافعي وأصل اللغة وكمالها

لايمكننا تجلية نظرية الرافعى التى اعتمد عليها فى ابراز أسرار  
تمدن النظام اللغوى الا اذا قمنا بتوضيح رأى هذا الباحث فى أمرين  
لهما أثر كبير فيما حققه وهما :

١ — أصل اللغة

٢ — كمال اللغة

### الرافعى وأصل اللغة

يعرف البحث فى أصل اللغة ونشأتها اشتداد الجدل بين نظريتين  
شغلنا المفكرين ، والنظرية الاولى ترى أن الله عز وجل هو الذى أوحى  
الى البشر باللغة ، والنظرية الثانية تذهب الى أن اللغة من اصطلاح  
الناس وتواضعهم • وقد فسر اصطلاح الناس على اللغة بأوجه كثيرة  
مختلفة (١) •

ويرى الرافعى أن القول بأن اللغة وحى وتوقيف من الله فى  
الوضع أو فى الموضوع — يذهب الى أن الانسان كان محاطا بالسكوت  
المطلق (٢) ويقرر أن هذا القول انما هو من باب التقوى التاريخية لا  
أكثر « لان الانسان خلق مستعدا منفردا ، ليصير بعد ذلك عالمامجتعا ،  
وليجرى فى كماله المقسوم له على سنة الله التى لم تتبدل ، ولن تجد لها  
تبديلا ، وهذه السنة هى أن المتغير لا يوجد كاملا بل لا بد له من نشأة  
يمر فى أدوارها حتى يتحقق معنى التغير فيه » (٣) •

وأصل هذا المذهب فى رأيه كان مبالغة فى تصور الاستعداد  
الانسانى ، لانه الهام لامرية فيه ، أما أهله فهم منقسمون ، فمنهم من  
يقول بأن الانسان ألهم اللغة نفسها ، ومنهم من يقول بأنه ألهم أصول  
المواضعة •

(١) د : محمود السعمران : علم اللغة مقدمة للقارئ العربى • دار  
المعارف بمصر ١٩٦٢ م ص ٥٥

(٢) مصطفى صادق الرافعى تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٤٦  
طبعة دار الاخبار بمصر ١٩١١

(٣) المصدر السابق ص ٤٨ — ٤٩

والحقيقة عند الرافعى أن الانسان ملهم بفطرته أصول الحياة ، وليست اللغة بأكثر من أن تكون بعض أدواتها التى تعين عليها ، وهى فى كل أمة على مقدار ما تبلغ من الحياة الاجتماعية قوة وضعفا ، واذا كان من أصول الحياة الاجتماع فمن أصول الاجتماع اللغة ، وهذه من أصولها الموضوعة ، فاللغة بنت الاجتماع (١) . ويجاول الباحث أن يفسر الطريق الذى سلكته اللغة ، فيؤكد أن اللغة كلها حكاية للطبيعة ، ويقرر أنه ان كان ثم توقيف أو وحى فانه يكون فى هداية العقول الى أسرار هذه الحكاية (٢) .

وواضح أن هذا يختلف عن وجه نظرية التوقيف ، فالتوقيف أو الوحى الذى يقصده الرافعى بالنسبة الى الحكاية انما يقتضيه أنه لا بد « فى استكناه منطق الطبيعة من الذهن الشفاف ، والبصيرة النفاذة ، والالهام الخفى الذى يشبه أن يكون قبسا من النور الالهى ، يضىء بين العقل والقلب ، فلا يقع شعاعه على جهة من الطبيعة الا كشف منها عن معانى الاسرار الالهية » (٣) .

ويتناول الرافعى الاصوات الحيوانية ، والاصوات الطبيعية الاخرى ، ويذكر أن اقرب ما يصح فى الظن مما لا يبعد أن يكون الوجه المتقبل — أن الاصوات الحيوانية هى المثال المحتذى فى لغة الانسان لانها محيطة به تتقلب على سمعه كلما سمع ، خصوصا والانسان فى أول اجتماعه مضطر لمغالبة الحيوان (٤) . . . وأوائل الالفاظ « التى نطق بها الانسان ، وادارها على معان متنوعة ، هى ألفاظ الاحساس ، وما يصرح به عن الوجدان على الصور البسيطة التى لا يزال اكثرها ميراثا فى الجنس كله على تباين اللغات ، وهى التى تشبه فى تركيبها مقاطع الصوت الحيوانى ، اذ يكثر فيها الحرف الهاوى الذى هو أخف الحروف ، بل هو الصوت الطبيعى فى الحياة ، وهو حرف اللين بأنواعه الالف ، والواو ، والياء .

---

( ١ ) مصطفى صادق الرافعى — تاريخ آداب العرب

ج ١ ص ٤٦ — ٤٩

( ٢ ) المصدر السابق ص ١٧٤ — ١٧٥ وانظر ص ١٨١

( ٣ ) المصدر السابق ص ١٧٥

( ٤ ) المصدر السابق ص ٤٩

وماعدا هذا الحرف فقلما يكون فيها الا أحرف الحلق ، كالعين ،  
والغين ، والهاء ، والخاء ، لانها قريبة من الحنجرة ، وذلك فى الانسان  
نحو آه ، وأخ ، وأمثالهما من المقاطع الصوتية التى لا يزال الانسان  
يعبر بها عن أنواع من الاحساس الى اليوم . ولما أدرك الانسان  
حقيقة هذا الاستعمال ، وتقلب فيه ، واصطلحت عليه الجماعات منه ،  
فنتق له استعدادده للالهام أن يتأمل فى الاصوات الطبيعية الاخرى من  
قصف الرعد ، وانقضاض الصواعق ، وخزير الماء ، وهزير الريح ،  
وحفيف الشجر ، واصطكاك الاجسام ، وما اليها من أصوات هذه  
اللغة الجامدة ، وهى ربما تبلغ المائة عدا ، فقلدها ، واهتدى بها  
الى مخارج حروف أخرى غير التى تنتهى فى الاصوات الحيوانية ، فداربها  
لسانه ، وأبتدأ يجمع بينها على طريق المحاكاة ، دالا بالصوت على  
محدثه . . . وهذه الحالة كانت بدء اختراع اللغة ، أى حين كانت  
حاجات الاجتماع قليلة ، لا تتجاوز الاشارة الى أمهات المعانى الطبيعية  
بالمقاطع الثنائية ، كأنهمال المطر ، وانفلاق الحجر ، وانكسار الشجر ،  
وأمثالها ، فلما بدأ الاجتماع يرتقى بنسبة أحوال الانسان يومئذ بدأ  
الاختراع الحقيقى فى اللغة ، وأمثل ما يظن فى ذلك أن الانسان جعل  
يقلب المقاطع الثنائية التى عرفها على كل الوجوه التى تحدثها آلات  
الصوت ، فلما استتم صورها ارتجل المقاطع الثلاثية ، فدارت بها  
الحروف دورة جديدة ، وفشت ألفاظ أخرى غير التى عهدا ، وكان  
ذلك ابتداء تسلسل اللغة ، فتواضعوا على اعتبار المقطع الثنائى أصلا فى  
مدلوله ، كقط مثلا حكاية صوت القطع ، ثم جعلوا كل صورة تتحصل  
من زيادة حرف عليه فرعا من هذه الدلالة ثم استفاضوا فى الاستعمال  
على هذا التركيب بالقلب ، والابدال ، وبذلك اهتدى الانسان الى سر  
الوضع . . . » (١)

واهتمام الرافعى بالالفاظ الطبيعية الاولى التى كانت من حاجة  
الانسان أول عهده بالتعبير كالقطع والكسر والهدم والشق والخرق . . .  
دليل على أن الرجل قد اطمأن الى كون اللغة حكاية للطبيعة ، فهذه  
الالفاظ عنده هى المعانى الوحشية فى لغة الانسان ، ثم لما انقاد الوضع

بهذه الطريقة لاهل اللغة جعلوها من سنتهم ، وقلبوا عليها الالفاظ الاخرى مما ليس بسبيل من تلك المعانى (١) .

وهو يدعم مذهبه بكل ما استطاع ، ففى ضوء الطريقة التى فسر بها كيفية اهتداء الانسان الى سر الوضع ، واستنادا الى ما حققه علماء طبقات الارض وغيرهم (٢) يذكر أن اللغة ثلاثة عصور ، هى عصر التوحش ، وهو الذى خرجت فيه الاصوات الوجدانية مصحوبة بالاشارات أولا ، ثم استقلت هذه أولا ، والعصر الحجرى وهو الذى ابتدأ فيه الانسان ينحت من المقاطع الحيوانية والطبيعية لغته الاولى . والعصر البرنزى الذى يدخل فيه شىء من الصناعة ، وهو العصر الذى اهتدى فيه الانسان الى الزيادة على المقاطع الثنائية ، وصنعة الالفاظ على هذا الوجه ، ثم انقادت له اللغة وتماسكت ، وذلك عصرها الحديدى الذى ابتدأ مع التاريخ (٣) .

ويعد الرافعى التغير حقيقة الاصطلاح والمواضعة ، ويرى أن الانسان « لما ارتجل المقاطع الثلاثية دل بها على معان محصورة فى حدود نظامه الاجتماعى ، ثم ضرب فى الكلام بمقدار ما يجد من أمره ، وما ينتبه اليه من حقائق الموجودات ، التى تكاثره بنفسها ، وما يقتضيه التبسط فى مناحى المجتمعات شيئاً خفياً ، وذلك على طريقة تكرار الالفاظ ، وتتويعها للمعانى المختلفة بدلالة القرينة » (٤) .

وعنده أن اللغة فى طورها الصناعى الذى يحققه الارتقاء ، والوصول الى أعلى سلم الاجتماع الطبيعى — تجرى عليها أحكام الاشتقاق ، والنحت ، والقلب ، والابدال ، ويفعل الزمن فعله فيها كما يفعل فى تكوين الجماعات ، وبذلك تتنوع وتنشأ منها اللغات الكثيرة (٥) .

- 
- ( ١ ) المصدر نفسه ص ١٨ .
  - ( ٢ ) المصدر نفسه ص ٥١ — ٥٢
  - ( ٣ ) المصدر نفسه ص ٥٢
  - ( ٤ ) المصدر نفسه ص ٥٤
  - ( ٥ ) المصدر نفسه ص ٥٥

واللغة لدى هذا الباحث بنت الاجتماع ، تلتقى لدلالة خاصة  
يعينها الاصطلاح العرفي بين المتكلم والسامع ، وهذا الاصطلاح عمل  
اجتماعي محض (١) .

أما اختلاف اللغات فهو عمل صناعي تكيفه حالة الاجتماع كما  
تكيف سائر الاحوال من العادات وأمثالها ، ولهذا كانت حقيقة معنى  
اللغة أنها مجموع العادات الخاصة بطائفة من طوائف الاجتماع (٢) .

### موقف الرافعي ورأى البحث اللغوي

وماقاله الرافعي يستحق التحقيق ، لأنه أساس نظريته في أسرار  
النظام اللغوي ، ولا بد ان نضعه أمام بحوث علم اللغة ، لنحاول الوصول  
الى ما نرجوه ..

ويبدو أنه وجد في نظرية المحاكاة أو التقليد الصوتي من  
الوجاهة والمناسبة ما جعله يطمئن اليها ويؤكد لها في عدد من  
المواضع (٣) .

وفي رأبي أنه تأثر بما ذكره ابن جنى في حديثه عن تلك النظرية  
معزوا لبعضهم . يقول في الخصائص (٤) : « وذهب بعضهم الى أن  
أصل اللغات كلها انما هو من الاصوات المسموعات كدوى الريح ،  
وحنين الرعد وخزير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل  
الفرس ، ونزيب الظبي ، ونحو ذلك . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما  
بعد . وهذا عندي وجه صالح ، ومذهب متقبل » .

وابن جنى يقرر أنه يجوز في القول على اللغة أن تكون مواضعة ،  
كما يجوز أن تكون الهاما ، فالامر ان جائزان في رأى هذا العالم ، لأنه

(١) المصدر نفسه ص ٥٥

(٢) المصدر نفسه ص ٥٥ - ٥٦

(٣) المصدر نفسه ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،

١٨٠ ، ١٨١

(٤) ج ١ ص ٤٦ - ٤٧

يقول (١) : « قد تقدم في أول الكتاب القول على اللغة أتواضع هي أم الهام ، وحكيها وجوزنا فيها الامرين » . وهذا يدل على أنه قرر الوقف ، وعدم الجزم بأحد الامرين اخيرا ، والفرق كبير بين ما انتهى اليه ، وما قرره الرافعي ، وان ذكرنا أنه تأثر بقول صاحب الخصائص الذي نقلناه ، والذي بين أن اللغة في مذهب بعضهم تقليد للاصوات .

ولقد سبق المرحوم جورجى زيدان الرافعي في الاهتمام الكبير بنظرية المحاكاة والفلسفة اللغوية ، فكتابه الفلسفة اللغوية صدر في بيروت سنة ١٨٨٦م وفيه شرح لمذهب المحاكاة يعبر عن الايمان الشديد بها ، فهو يقرر أن « لغتنا مؤلفة أصلا من اصول محصورة عدا أحادية المقطع معظمها مأخوذ عن محاكاة الاصوات الخارجية ، وبعضها عن الاصوات الطبيعية التي ينطق بها الانسان غريزيا » (٢) . ويرى أن الالفاظ المتقاربة لفظا ومعنى هي تنوعات لفظ واحد . . والتنوعات قد حصلت بموجب ناموسين عظيمي الاعتبار هما القلب والابدال (٣) . أما الالفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها فيرد معظمها بالاستقراء الى اصول ثنائية احادية المقطع تحاكي أصواتا طبيعية (٤) . والتقليد هو أساس اللغة ، وأصل نشأتها ومدار ارتقائها (٥) . والكلام في تاريخ اللغة يقسم الى دورين (١) الدور التقليدي (٢) الدور النطقى (٦) .

ويحاول زيدان بكل ما استطاع أن يدعم نظرية المحاكاة فيقول : (٧) « وقد يعسر التسليم بنشوء اللغة عن الاصوات الطبيعية وحدها لانها لا تكاد تذكر بالنسبة الى ألفاظ اللغة واشتقاقاتها وأنواع تعبيرها مما يعد بمئات الالوف على حين أن الاصوات الطبيعية لا تكاد تزيد على المائة والجواب أن ذلك طبيعى . . يتناول سائر الاجسام الحية وما يتعلق بها فكلها تنمو وترتقى وتتوعد وتتكاثر جريا على ناموس

(١) الخصائص ج ٢ ص ٢٨ .

(٢) جورجى زيدان : الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية — الطبعة الثانية مطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩٠٤م ص ١٩

(٣) نفسه ص ٢٠

(٤) نفسه ص ٥٤

(٥) نفسه ص ٧٨

(٦) نفسه ص ٧٨ وانظر التفصيل ص ٧٨ — ٨٥ وما بعدها

(٧) نفسه ص ٨٤

الارتقاء العام ٠٠» ويؤكد هذا الباحث أن اللغة الطبيعية تنوعت تبعاً لاحتياجات الانسان بوسائل النمو المختلفة (١) ويشير الى أحوال اللغات ، منتهيا الى أن جملة القول « أن من الامور الراجحة قياسا ، والجلية استقراء أن لغتنا مؤلفة أصلا من أصول قليلة أحادية المقطع ثنائية الاحرف في الاغلب ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الاصوات الخارجية وبعضها عن المقاطع الطبيعية التي ينطق بها الانسان غريزيا ، وأنه من هذه الاصول القليلة قد نشأت وارتقت بارتقاء أفكار المتكلمين بها ، وتعددت ألفاظها بتعدد احتياجاتهم » (٢) .

وفي كلام الرافعى ما يدل على أنه استفاد مما ذكره جورجي زيدان بعض الامور مثل التنوع بالنحت والابدال والقلب تبعاً لاحتياجات الانسان (٣) والامثلة التي ذكرت عن أهل استراليا وغيرهم (٤) والدلالة الحسية والدلالة المعنوية (٥) . ولا نستبعد أن يكون الرجلان قد اطلعا على ما كان متداولاً بين علماء الغرب في زمنهما عن طبيعة اللغة ووظيفتها ، واستفادا الكثير مما كتبه المستشرقون عن اللغة العربية ، وان كان لبعض علمائنا القدماء فضل كبير في ابراز النظريات (٦) بصورة تدل على السبق وسعة الافق وأياً ما كان الامر فان بعض الباحثين يرى أنه يمكن الاعتماد على نظرية المحاكاة في فهم الطريقة التي يمكن أن يكون الانسان قد اتبعها في مبدأ الامر في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، وهي التي يصح أن نعتبرها ادنى نظريات البحث في نشأة اللغة الى الصحة ، وأقربها الى المنطق السليم ، وسنة النشوء والارتقاء في نشأة اللغات (٧) .

(١) نفسه ص ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٤

(٢) نفسه ص ٩٧ — ٩٨

(٣) انظر الفلسفة اللغوية ص ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٤ وتاريخ آداب العرب للرافعى ج ١ ص ٥١ ، ٥٥

(٤) انظر الفلسفة اللغوية ص ٨٥ وتاريخ آداب العرب للرافعى ج ١ ص ٥٢ — ٥٤

(٥) انظر الفلسفة اللغوية ص ٧٥ وتاريخ آداب العرب للرافعى ج ١ ص ٥٤

(٦) انظر الخصائص لابن جنى ج ٢ ص ١٣٣ وما بعدها وص ١٤٥ وما بعدها و ص ١٥٧ وما بعدها .

(٧) د. على عبد الواحد وافي : علم اللغة — الطبعة الثانية — نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٤م ص ٧٨

ولا ريب عندي في أن ما أتت به هذه النظرية من المناسبة بين الالفاظ والمعانى — قد استحوذ على الرافعى • ومن المعروف أن نظرية المحاكاة انما هى فرض فى كيفية نشأة اللغة فى رأى اصحاب الاصطلاح ، ولكن الرافعى جعلها تهيمن على الدرس اللغوى ، ومدھا الى جوانبه بمستوى انفراد به ، ومنهج عبر عن تعمقه ، واجتهاده فى تجلية أسرار اللغة •

ومن غير شك أنه لاحظ أنه من العسير ان تكون المشابهة تامة فى المحاكاة وأن جعل اللغة تخضع للمستويات التى وجدھا وارتضاھا — يدعم نظرية المناسبة ، ويدفعھا الى ابراز صور التمدن •

ويمكننا أن ندرك أنه لم يقبل ما ذهب اليه بعضهم من أنه يبدو سخيفا أن يكون الترتيب التاريخى لنشأة الكلمات هو أن تبدأ عن طريق الحيوان الادنى أو غيره • •

ثم يأتى بعده الانسان فيضع لفته عن طريق تقليده (١) له ، لانه ذهب الى أنه لا يبعد أن يكون الوجه المتقبل أن الاصوات الحيوانية هى المثال المحتذى فى لغة الانسان • • ولعله قد فطن الى أن تقليد الانسان للحيوان لا يضره فى شئ ، فلا يستطيع أحد ان ينكر صورة التقليد فى قصة ابنى آدم • قال تعالى : « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين فبعث الله غربا يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه فأصبح من النادمين (٢) » •

وأمر التقليد للطير فى محاولة الانسان التطور والرقى بالطيران واضح لا يحتاج الى بيان •

وموقف الرافعى يدل على أنه لم يقبل الاعتراض على نظرية المحاكاة بأن اطلاق الاصوات التى لا معنى لها الخاصة ببعض المخلوقات على المخلوقات ، او حركة أصواتها ، أو نتيجة الصوت — يجعل الصوت

---

(١) د • ابراهيم انيس دلالة الالفاظ نشر مكتبة الانجلو — الطبعة الثانية ١٩٦٣ م • ص ٢١ — ٢٢  
(٢) المائدة الآية ٣١

الذى لا معنى له فى نشأته ، له معنى حقيقى فى فم المقلد ، وفى عقل من يسمعه . . . ولعله تأمل فى لغة الاطفال الصغار ، وتبين له أن لهم طريقة فى خلق كلمات لم تسمع قط من قبل ، وادرك ربطهم بعض المعانى بمجموعة من الاصوات التى لا معنى لها فى الاصل ، ثم انتقل بالاصوات المبهمة بفضل الميزة التى حبا الله بها الانسان دون سائر الحيوانات ، فأصبحت تلك الاصوات دالة على معنى ، هو مصدر الصوت أو ما يتصل به . . . يقول الاديب الباحث (١) « منذ خلق الانسان خلقت الاصوات وهى مادة اللغة ، ولكن الطفولة الفردية تدلنا على أن الطفل يبتدىء من أبسط درجات النطق الطبيعى الذى هو محض أصوات مصبوغة بصبغة من الشعور تكون هى حقيقة الدلالة المعنوية فيها فيكون كأنما يلهم المنطق بهذه الاصوات التى هى لغة روحه ثم يدرك معانى تلك الدلالة ، ويميز بين وجوهها المختلفة ، ثم ينتهى الى الفهم فيقلد من حوله فى طريقة البيان عنها بالالفاظ متوسعا فى ذلك على حسب ما يتسع له من معانى الحياة الى أن تنقاد له اللغة التى يحكيها ، ولولا التقليد الذى فطر عليه ما بلغ من ذلك شيئا » .

ويرى بعض الباحثين انه يجب ان يكون فى الحساب مراعاة عدم وضوح الصوت المحكى ، وأن ما يدرك يختلف فيعبر كل واحد بمقطع أو صوت يحكى ما أدرك فيكون الاختلاف . . . والاسماع لا يمكن أن تتفق تمام الاتفاق ، وكذا أدوات الحكى ليست عند الناس سواء ، أما الاجواء المختلفة فلها دخل كبير فى وضوح الصوت أو عدم وضوحه ، والحاكى قد يكون بلسانه بعض عجز كالسمع تماما ، وأسماع الحاكين فى القديم تختلف عن اسماعنا . وكل هذه المباينات تقتضى المباينة فى المسموع ، ومن هنا قد تأتى بعض اسباب اختلاف اللغات فى المسمى الواحد . ولا يجب أن نهمل أن الالفاظ دخلها أنواع من التغيير تعاقبت عليها فى صورها ومعانيها ، وصارت علامات للاشياء أو الصفات من غير مراعاة المناسبة الصوتية (٢) .

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٤٦

(٢) عبد الله العزازى : فقه اللغة — نشر الجامعة الاسلامية —

وعندما نتناول نظرية المناسبة ، والآراء التي تعرضت لها سندرك أن الرفاعي أسرف في جعل اللغة كلها حكاية للطبيعة ، وإن كان له في ذلك اتساع مبني على القياس ، وامتداد يستفيد من مستويات المحاكاة ويجعلها ضروبا من القدرة ، وألوانا من التطور ، ووجوها من الفقه في الدرس اللغوي تفسرها وتقودها . وجهده في تفسير مذهبه ومساندته بكل ما استطاع قرب تصور نشأة اللغة : وجعل نظرية المحاكاة أدنى الى طابع اللغويات بصورة تشهد بفضله وبراعته في هذا المجال . يقول الرجل (١) « وأقرب ما يصح في الظن مما لايبعد أن يكون الوجه المتقبل ، وإن كان الظن لايعنى من الحق شيئا أن الاصوات الحيوية هي المثال المحتذى في لغة الانسان » .

والحق أنه وإن لم يقدم دليلا يقينيا ، فإنه لم يلجأ الى الغموض والابهام الذي وجدناه في بعض النظريات الاخرى (٢) ولم يسلك مسلك غيره في الاسراف في الافتراضات (٣) . ولم يعبأ بالمشكلات والاختلافات التي دعت بعض العلماء الى الانصراف عن البحث في نشأة اللغة (٤) بل أراد أن يوجه الناس الى ما حققه اجتهاده . وأن يرشدهم الى رفض منطق الاستسلام وإن اعترف بأن الفائدة التي تحققت كانت ظنية . . انه بدأ بحثه في أصل اللغات بتأكيد أن اللغة بنت الاجتماع ، ثم ذكر أنه إذا كان أصول الحياة الاجتماع فمن أصول الاجتماع اللغة ، والذي يذهب اليه العلم حديثا « هو أن اللغة ظاهرة اجتماعية كسائر الظواهر الاجتماعية ، ومعنى هذا أنها من صنع المجتمع الانساني ، ولايعرف مجتمع انساني منذ أقدم عصر سجله التاريخ بلا لغة ناضجة التكوين » (٥) . وهذا يؤيد ما قاله صاحب تاريخ آداب العرب في أمر اللغة والاجتماع ، وكرره ، ليوهجها الى أنه هو الذي يعول عليه في هذا الشأن .

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٤٩

(٢) انظر دلالة الالفاظ : د. ابراهيم انيس ص ٢٥ وعلم اللغة :

د. علي عبد الواحد وافي ص ٧٤ — ٧٧

(٣) انظر عبد الله العزازي : فقه اللغة ص ٢٨ — ٢٩

(٤) انظر السيوطي : الزهر ج ١ ص ٢٦

(٥) د. محمود السمران — علم اللغة مقدمة للقارئ العرب ص ٥٥

ولامية في أن ما صنعه في الاستفادة من بحوث علماء طبقات الارض ، وما سجله المؤرخون ، وما فعله في دراساته لعناصر وظواهر من لغات الشعوب المنحطة في بعض القارات ، وحرصه على مراعاة ملاحظات من أحصوا الاصول الطبيعية الثابتة للمعاني المتفرعة (١) — برهان على أنه بذل الكثير لينفع الدارسين .  
وإذا ذكروا أنهم يطمئنون الى الطريقة الاستنباطية التي تقوم على الملاحظة والتجارب ، وتأخذ بالاسس العلمية الواضحة ، وتهتم بهذه الامور :

- ١ — دراسة مراحل نمو اللغة عند الاطفال .
- ٢ — دراسة اللغة في الامم البدائية .
- ٣ — دراسة تاريخية للتطور اللغوي (٢) .

— فنحن نذكر ان نسق الرفاعي قدم اشارات هامة ، وبحثه أعطى توجيهات لها قيمتها . . . وعند الموازنة نجد بعض الجوانب التي ترفع منزلته وتشهد بأنه لم يكن يغفل عن أهمية دراسة اللغة في الامم البدائية ، وعن ضرورة الانتباه الى التطور اللغوي ، ولن ننسى له قوله: « اللغة تابعة لاحوال الاجتماع في البسط والقبض ، وما يتقلب عليه ، ويحدث فيه بحيث لاتخرج عن أن تكون مرآة تظهره كما هو في نفسه مما تنوعت أشكاله ، واختلفت أزياءه » (٣) ، فما قاله لا يختلف عما أثبتته البحث الحديث وهو أن اللغة « أداة اجتماعية يوجد لها المجتمع للرمز الى عناصر معيشته وطرق سلوكه ، ولذا يحدد طرق هذه اللغة واستعمالاتها ويضعها موضع الظاهرة الاجتماعية فيصدق عليها ما يصدق على كل ظاهرة اجتماعية أخرى من الخضوع لظروف التعارف وللتصويب والتخطئة بحسب هذا التعارف » (٤) .

---

(١) مصطفى صادق الرفاعي — تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٥١ — ٥٥

(٢) د. ابراهيم انيس — دلالة الالفاظ ص ٢٧ — ٣٥

(٣) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٥٣

(٤) د. تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها : الهيئة المصرية

العامية للكتاب الطبعة الثانية ١٩٧٩ ص ٢٨

## ٢ — الرفاعي وكمال اللغة

تدعونا نظرية الرفاعي التي توجه درسه اللغوي الى الحديث عن كمال اللغة عنده ، فمسألة الكمال تفسر كثيرا من الوجوه ، وتسود الدرس ،

ومن الحق أن نقول ان الاديب اسرف في تعظيم اللغة ، وبلغ في ذلك مستوى لم يبلغه الذين عرفوا بالمبالغة في ذلك (١)

ويبدو أن ما وجدته في عصره من بعض مظاهر الاستهانة والسخرية ثم ما لاحظه من محاولة فرض ما ليس من العربية في شيء ، تمهيدا لاشاعة الزيغ ، وبث الانحراف — قد دفعه الى الافراط في صورة التعظيم التي لم يصل اليها أحد ممن عاصروه أو جاءوا بعده ، ولا غرابة في ذلك ، فانه كان يشعر بأنه رسول لغوي ، يريد ان « ينفخ في هذه اللغة روحا من روحه ، يردها الى مكانتها ويرد عنها ، فلا يجترىء عليها مجترىء ، ولا ينال منها نائل ، ولا يتندر بها ساخر ، الا انبرى له بيدد أو هامه ، ويكشف عن دخيلته » (٢) .

ومن الواضح ان اسرافه جعلها قريبة من الاعجاز ، عجيبة ، وجعله عندما تحدث عن العمل الهام الذي كان له شأنه الكبير في تهذيب اللغة — العمل الذي تم على يد قريش — يهمل أمر الحقائق اللغوية الموضوعية ، وما يحتمه الدرس من الدقة والتحديد . . ان الحقائق المذكورة تتطلب تفسير الاوضاع الخاصة وتجلية الشواهد ، وبيان الاختلاف ، وكشف التغيير كتنسفا علميا ينفع الدرس ، ويفيد البحث ، ولكن منهج الاسراف يجعل تهذيب قريش من باب الاحداث الكونية ، والخورق الطبيعية ، ويشيد بأدواره المدهشة . . دون ان يوضح القوانين ، أو يحقق جملة التهذيب وقضاياه .

---

(١) انظر ابن فارس : الصحابي طبعة ١٩١٠ م المكتبة السلفية ص ١٢ — ١٦ ، ٢٣ ، وابن جنى الخصائص ج ١ ص ٤٧ ود : ابراهيم السامرائي : فقه اللغة المقارن : دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٨ ص ١٧٤  
(٢) محمد سعيد العريان : حياة الرفاعي ص ٧١

وهذا يدفع الدارسين الى الدهشة والحيرة ، ويؤدى الى اشياء من الادعاء والتزيد ، والتمسك بأشياء واهية لا يعول عليها في علم اللغة • وليس من النهج الدقيق — النهج الكامل الصحة — أن تؤكد المبالغة أن لقريش الفضل في تحقيق كل معانى الحياة اللغوية في تعاقب كالسلم المدرجة تنتهى الدرجة الى درجة ، على نمط متساق من الرقى ، ان لم يكن عجبيا في تاريخ أمة متحضرة ، فهو عجيب على الخصوص في تاريخ العرب • • والرجل لا يؤمن بأن خصائص لهجة قريش ليست هي الغالبة على غيرها ، وينسى دور تميم وغيرها (١) •

ويسوق كلامه في ابهام وغموض ، ولا يبين وجه هذا التعاقب أو سر النمط المتساق ، ويحرص على التثبيث بالافراط في نسق المثالية الشامل • • فما هو ذا يقول (٢) « وكانت تلك القبائل بطبائعها متباينة اللهجات ، مختلفة الاقيسة المنطقية المودعة في غرائزها ، فكان قريش يسمعون لغاتهم ، ويأخذون ما استحسنوه منها ، فيديرون به ألسنتهم ، ويجرون على قياسه ، ولو كانوا بادين كسائر القبائل ما فعلوه ، ولكن نوع الحضارة الذى اكتسبوه من تاريخهم ألان طباعهم وكسر من صلابتهم ، فاتفقت في ذلك حياتهم اللغوية ، وحياتهم الاجتماعية • • فلما اجتمع لهم هذا الامر ارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبجها ، وبذلك مروا على الانتقاد حتى رقت أذواقهم ، وسمت طبائعهم ، وقويت سلائقهم ، وحتى صاروا في آخر أمرهم أجود العرب انتقاء للافصح من الالفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعا ، وأبينها ابانة عما في النفس • • » •

وبعد الحديث عن رحلاتهم وسماعهم وتدبرهم وصنيعهم بألفاظ الامم • • يقول : (٢) « وعلى ذلك صاروا بطبيعة أرضهم في وسط العرب كأنهم مجمع لغوى يحوط اللغة ، ويقوم عليها ، ويشد أزرها ، ويرفع من شأنها ، ويزيد في ثروتها ، وبالجملة يحقق فيها كل معانى الحياة اللغوية ولايسع المتأمل في الادوار التى تعاقبت على قريش في تهذيبها

(١) انظر د . عبده الراجحي : اللهجات العربية في القراءات القرآنية دار المعارف ١٩٦٨ ص ٤٩

(٢) الرافعى تاريخ آداب العرب ص ٨٢ — ٨٣

(٣) نفس المصدر ص ٨٣ — ٨٤

اللغة الا ان يستسلم للدهشة ، ويجار من أمر هذا التعاقب ، فانه كالسلم المدرجة تنتهي الدرجة منها الى درجة ، على نمط متساوق من الرقى ، ان لم يكن عجيبا في تاريخ أمة متحضرة فهو عجيب على الخصوص في تاريخ العرب ، ولا سيما اذا اعتبرنا مبدأ تلك النهضة ، وأنها لا تتجاوز مائة سنة قبل الهجرة الى مائة وخمسين على الاكثر فلا بد من التسليم بأنها حادثة كونية من خوارق النظام الطبيعي ظهرت نتیجتها بعد ذلك في نزول القرآن الكريم بلغة قريش •

وعندما تحدث ابن فارس في كتابه الصحابي في باب القول في أفصح العرب (١) ، ذكر أن قريشا أفصح العرب السنة ، وبين فضلها وعملها في التهذيب ، وخلوها من مستبشع اللغات ومستقبح الالفاظ ، ولكنه لم يذهب الى الخوارق والادوار المدهشة، وهو الذي يقول ان لغة العرب توقيف ، ويتعصب في تأكيد ذلك كل التعصب ، ويقرر أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها ، وسائر اللغات قاصرة عن اللسان العربي ، وواقعة دونه • ثم يذكر ان المتكلم بغير العربية اذا أعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده ، فان ذلك يعد أحسن مراتب البيان ، وأن من الغلط أن تبين سائر اللغات ابانة اللغة العربية ، ويدعى أن سائر الامم لا تملك براعة الكلام ، ولا تعرف الايماء اللطيف ، والاشارة الدالة كالعرب ، ويذهب الى أن هذه الامم لا يمكن أن تعبر عن الاقوال • • لان ذلك يعرفه العرب وحدهم (٢) •

وهذا تفكير ينأى عن قوانين اللغات ، ويرى أنها ليست من باب الاجتماع اللغوي ، فهي الاعلى والارفع ، و لا يمكن ان تضاهى أو تقابل أو يعارض بها كلام •

والبون شاسع بين الرجلين ، لان مسألة الخوارق والاحداث الكونية تحسم الامر ، وتدل على أن صاحب تاريخ آداب العرب ، أسرف كثيرا • • انه آثر الاستسلام للدهشة والحيرة ، ومستويات المنهج العلمي لا ترضى عن ذلك ، ولا تحب أن يكون الدرس اللغوي

(١) ص ٢٣

(٢) ابن فارس — الصحابي — ص ١٢ — ١٦

دعوى الى تقديس العجيب ، والخضوع لما يفرضه من غموض وخفاء  
•• ويشير بعض من ترجموا له الى انه كان ولو عا بأن يضيف الى كل  
شئ شيئاً من عنده ، وتلك كانت طبيعته (١) •• وأرى أن مجال الحقائق  
اللغوية تكره الشطط والنأى عن الحق ، والتسليم بالخوارق والحوادث  
الكونية في أمر اللغة •

واللغة من النظم الآدمية التجمعية ، ليست صناعة أفراد بعينهم  
ومعنى هذا انها لا تقوم على ما ذكره من الخوارق ، وانما شأنها شأن  
الظواهر الاجتماعية ، تلك التى تحقق فيها خصائص مطردة لا تتخلف ،  
وطبائع مشتركة لا تشذ عنها أى واحدة من تلك الظواهر الجماعية ،  
والنظم الاجتماعية •

واللغة من النظم الآدمية التجمعية ، ليست صناعة أفراد بعينهم  
ولا عمل جيل بذاته ، ولا يستطيع قوم مجتمعون أن يقدموا من امرها  
شيئاً أو يؤخروه •• فلا هم يتدخلون تدخلا اراديا في وجودها ، ولا هم  
يسهمون في تنظيمها ، ولا هم يختطون طريقها •• ولن يغيروا ابدًا  
من واقع تحتمة القوانين الاجتماعية الثابتة المطردة • (٢)

« ان سنن الحياة وفيها حياة اللغة — حقائق لا طفرة فيها ، ولا  
خوارق •• وليس يصح حكم على شئ فيها الا بعد بحث ، وبحث  
يتعرف القوانين ، ويتبين النواميس •• وقد عرف الكثير من حياة  
الكائنات الاخرى » (٣) •

ان دعوة الاستسلام هذه لا يمكن قبولها ، فالامر أمر دراسة  
التطور ، تطور اللاغى نفسه ، وتطور اللغة ، ودراسة أثر البيئة الطبيعية  
المادية التى تعيش فيها اللغة ، ودراسة الظروف النفسية العاطفية  
والعقلية لتكلمى اللغة ، ومعرفة أنماط الحياة التى يحيها منكمو  
اللغة ، وادراك اثر التوارث ، وفعل الصراع ، وما تثبته المقارنات

---

(١) محمد سعيد العريان — حياة الرافعى ص ١٣٠  
(٢) أمين الخولى — مشكلات حياتنا اللغوية ص ٤٣ — ٤٤ وانظر  
اللغة والمجتمع لعلى عبد الواحد وافى ص ٩١ طبعة الطبلى  
(٣) نفس المرجع ص ٦٠

والمقابلات اللغوية (١) ، ثم استخدام أرقى ما وصل اليه التحقيق . .

وكيف يطلب الاستسلام ، وهو يكتفى بأن لغة قريش ارتفعت عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبجها . . وأنهم أجود العرب انتقاء للافصح من الالفاظ ، واسهلها ، واحسنها ، وابينها ، مما لا يعطى الصورة الدقيقة لفهم التهذيب ومداه ، فهناك حقائق متفرقة في انحاء شتى لا يصح البحث الا بارتياحها كلها ، والاكتفاء بجانب منها . . لا يفي بحق البحث ولا تكون نتائجه كاملة الصحة .

واللغة عند الرافعى عجيبة « يزيد في العجب منها أنها لغة تلك العقول الفطرية ، والفطرة وان كانت دائما تختص بمسحة آلهية ، الا أنها أصل الكمال في النفس لا نفس الكمال » (٢) .

ويدفعه الاسراف الى اعطاء اللغة اعتبارات لا ريب في بعدها عن النسق المفروض في تناولها ودراستها ، ان هذه الاعتبارات تفيض بالمستوى الاسمى ، والقضاء بأنها العامل الاجتماعى الاوحد في نهضة العرب الاسلامية ، والحكم بأنها هى سبب انتظام امر العرب ، فهو يقرر أن اللغة وصلت مستوى انتهى الى الكمال ، وامتازت بالاحكام على سنان فيها المعنى الالهى ، الذى لا دليل عليه الا شعور النفس ، والنفس هى البقية السماوية فى الانسان . ويذكر أن تلك السنن « خرجت بها اللغة كأنها عقل حتى تتلامح فى جهات الحكمة خطراته ، وتتراسل من أعين الوحي نظراته ، بل كأنها معنى آلهى مبتكر ، ألقى فى هذه الطبيعة ، فيتحول به وجه العالم الى جهة الله ، فمازال يتكشف من أطرافه شيئاً فشيئاً حتى ظهر ابتداعه فى القرآن الكريم ، فاتضح عن روعة تملك على الانسان مذاهب حسه ، وتنساب فى قلبه ، لتتصل بالروح الالهى من نفسه (٣) .

ويؤكد الكاتب أن العرب قوم رحل ، وقد اختلطوا بأمم كثيرة فلا بد أن يكون هذا الاختلاط بينا فى تكوين لغتهم ، وتلك سنة عامة فى

(١) نفس المرجع ص ٦١ — ٦٢

(٢) مصطفى صادق الرافعى — تاريخ آداب العرب ص ١٧٤

(٣) الرافعى — تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢١٣

اللغات (١) تضع بعض هذا الى جوار بعض ، فتجد البعد شاسعا بين الاتجاهين • وهو يشير بذلك الى انفراد العربية بما يعزلها عن لغات الدنيا ، ويرفعها عن سنن الكون اللغوية ، ونواميس الحياة اللسانية — فالامر عنده أمر الانفراد الحيوى ، والخوارق الطبيعية ••

ويزداد الغلو والشطط عندما يرى أنه تبعت الحياة اللغة ، ولم تتبع اللغة الحياة ، وكل فضل فى الرقى والاستقامة يرجع اليها وحدها • ثم يصل الامر الى الاعجاز فيقول (٢) ، « •• وهذه اللغة يوشك أن يكون أمرها معجزا على ما رأيت ، بحيث لا يغلو فى رأينا من يقول انها بسبيل من الاوضاع الالهية فى التوفيق والالهام ، لان أثر ذلك قد ظهر فى القرآن » ، كما يقول (٣) : « •• ويندر أن تجد ذلك كله — طرق الوضع — فى لغة من اللغات على مقدار ما تجده فى العربية ، فلا جرم كانت حرية بأن تكون مناط الاعجاز ، لانها الخلقة اللغوية الكاملة » •

ومن الغريب انه يعترف بأن كثيرا من اسرار الوضع لم يكشف ، وأنها تحتاج الى من يتتبع ألفاظها ، ويتدبر وجوه اشتقاقها ، ويتفقد مواقع كلام العرب ، ورتب صيغها واوزانها على ما تقتضيه اغراضها ، بحيث يستقر كل مثال منها فى نصابه ، ويرد الى حيزه ، لينتهى الامر بعلم يكشف عن كثير من أسرار الوضع (٤) • ويبدو أن نظرتة العاطفية التى ترى فى اللغة مالا يراه غيره ، من جلال الاعتبار الدينية ، وسمو المعانى الالهية — لم تقدر ما يقتضيه قوله بأن التوقيف فى اللغة انما هو من باب التقوى التاريخية لا اكثر •• وقوله بأن اللغة بنت الاجتماع ، والعرب قوم رحل قد اختلطوا بأمم كثيرة ، فلا بد أن يكون هذا الاختلاط بينا فى تكوين لغتهم ، وتلك سنة عامة فى اللغات ، فتلك الآراء تخالف ما ذكره من أمر الاعجاز •• وما جاء به نتيجة الغلو والاسراف ، ولو راعى الرافعى ما ذكره بالنسبة للتوقيف ، وما قرره من أن اللغة بنت الاجتماع — لما اندفع الى مسألة الاعجاز والخوارق

(١) المصدر نفسه ص ٦٩

(٢) المصدر ذاته ص ١٧٤

(٣) المصدر ذاته ص ١٦٧ — ١٦٨

(٤) المصدر ذاته ١٧٤

والاحداث ، ومن شأن الباحث أن يلتزم بمستوى ما قاله ، ويحرص على عدم الخروج على النسق الذي ارتضاه بشيء له تأثيره في جلب التناقض أو احداث التباين والتردد والاخذ تلاف .

« واللغوى الحديث لا يحاول تفضيل لغة على أخرى ، بل يعجب بكل لغة ، ولا ينظر الى ما اتصفت به الا على أنه خصائص لهذه اللغة عليه أن يدرسها ، وأن يبحث عن سرها » (١) وأعتقد أن نظرية المناسبة التي تسيطر على درسه في اسرار تمدن النظام اللغوى هي التي جعلته يتمسك بأن العربية فريدة ، ترفعها هذه النظرية عن السنن اللغوية ، ونواميس الحياة اللسانية ، حيث رأى فيها أمورا قادته الى تمجيد خوارقها ، وميزاتها ، وطرازها العجيب لديه ، فهى شئ آخر في كمالها وفضلها . ولعله قرأ ما قاله ابن فارس وابن جنى وغيرهما من الذين يسرفون في تعظيم هذه اللغة ، ووجد أنه لا يفي بحق العربية في التعظيم على الرغم مما وصل اليه في اغداق نعوت الجلال والحكمة ، وقد أشرنا الى موقف من مواقف ابن فارس في تعظيمها ، ونأتى هنا ببعض مما قاله ابن جنى لان الرافعى تأثر به ، وعول عليه في كثير مما جاء به في اسرار النظام اللغوى .

يقول هذا العالم في باب في أن العرب قد أرادت من العسل والاغراض ما نسبناه اليها ، وحملناه عليها (٢) : « . . لان الله سبحانه انما هداهم لذلك ووقفهم عليه ، لان في طباعهم قبولا له ، وانطواء على صحة الوضع فيه ، لانهم مع ما قدمناه من ذكر كونهم عليه في أول الكتاب من لطف الحس وصفائه ، ونصاعة جوهر الفكر ونقائه ، لم يؤتوا هذه اللغة الشريفة المنقادة الكريمة ، الا ونفوسهم قابلة لها ، محسة لقوة الصنعة فيها ، معترفة بقدر النعمة عليهم بما وهب لهم منها . . » ويقول في نفس الباب (٣) : « هذا كله . وما أكتفى عنه من مثله — تحاميا للاطالة به — ان كانت هذه اللغة شيئا خوطبوا به واخذوا باستعماله . وان كانت شيئا اصطلحوا عليه ، وترافدوا

(١) د : ابراهيم انيس دلالة الالفاظ ص ٢١١ وانظر : د : تمام حسان اللغة العربية معناها وبنائها ص ١٩٣  
(٢) ابن جنى الخصائص ج ١ ص ٢٢٨ — ٢٣٩  
(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٤ — ٢٤٥

بخواطرهم ومواد حكمهم على عمله وترتيبه ، وقسمة انحاءه ، وتقديمهم اصوله ، واتباعهم اياها فروعها — وكذا ينبغي أن يعتقد ذلك منهم ، لما نذكره آنفاً — فهو مفخر لهم ، ومعلم من معالم السداد ، دل على فضيلتهم » •

وانظر الى تلك النعوت التي تومىء الى منزلة اللغة لدى ابن جنى في قوله (١) « واعلم فيما بعد أنني على تقادم الوقت ، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضوع ، فأجد الدواعي والخوارج قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات التغول على فكري • وذلك انني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة ، والارهاف ، والرقعة وما يملك على جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر » •

ولا جدال في انك ستدرك أن الرافعي جاوز كل المستويات عندما توازن بينه وبين أبرز الذين اعتصموا بكمال اللغة ، وفضلوها في زهو كبير بميزاتها لقد اتجه أبو حاتم الرازي في كتاب الزينة أيضا الى رفع لغة العرب الى أعلى منزلة فعقد فصلا في ( فضل لغة العرب ) ذهب فيه الى أن العربية أفصح اللغات وأكملها ، وأتمها ، وأعذبها ، وأبينها • الخ • وسعى الى تأكيد فكرة التفوق والسمو ، وجعلها من نصيب العرب وحدهم ، فقد جاء في هذا الفصل : « وقال قوم بفضل اللغة اليونانية والهندية ، لان كتب الفلاسفة والاطباء وأصحاب النجوم والهندسة والحساب بها ، وهذا قول منبوذ عند أهل الملل » (٢) •

والرافعي لم يقف عند هذا الحد الذي بلغه أبو حاتم ، بل تشبث بأعلى ضروب المبالغة ، وأراد أن ينفرد بمستوى يشير اليه وحده في قدر التفضيل والتعظيم والكمال •

وفات الرافعي وغيره أنه لا معنى لهذا التفضيل المسرف ، وأنه لم يجيء نص في تفضيل لغة على لغة ، وقد قال تعالى : « وما أرسلنا من

(١) المصدر ذاته ص ٤٧

(٢) أبو حاتم : الزينة ج ١ ص ٦٠ — ٦٣

رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » • وقال تعالى : « فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » ، فاخبر عز وجل أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب الا ليفهم ذلك قومه صلى الله عليه وسلم ، لا لغير ذلك ، وعلى أساس لغوى علمى صحيح قضى على ما قاله جالينوس ، وهو أن لغة اليونانيين أفضل اللغات لأن سائر اللغات انما هى تشبه اما نباح الكلاب واما نقيق الضفادع — بأنه غلط وجهل شديد ، لان كل سامع لغة ليست لغته ، ولا يفهما ، فهى عنده فى النصاب الذى ذكر جالينوس ولا فرق (١) •

ويمكن مواجهة كل من يلوذ بالتمتيز المسرف ، وابطال ما يستند اليه • يقول ابن حزم (٢) : « وحروف الهجاء واحدة بلا تفاضل بينها ، ولا قبح ، ولا حسن فى بعضها دون بعض ، وهى تلك بأعيانها فى كل لغة ، فبطلب هذه الدعاوى الزائفة المهجينة ، وبالله التوفيق • وقد أدى هذا الوسواس العامى اليهود الى أن استجازوا الكذب ، والحلف على الباطل بغير العبرانية وادعوا أن الملائكة الذين يرفعون الاعمال لا يفهمون الا العبرانية فلا يكتبون عليهم غيرها ، وفى هذا من السخف ما ترى •• وعالم الخفيات وما فى الضمائر عالم بكل لسان ومعانيه •• عز وجل « أما من يقولون أن العربية أفضل اللغات لانه نزل بها كلام الله تعالى فان هذا العالم يقول لهم انه لامعنى لذلك (٣) ، « لان الله عز وجل قد أخبرنا انه لم يرسل رسولا الا بلسان قومه • وقال تعالى : « وان من أمة الا خلا فيها نذير » ، وقال تعالى : « وانه لفى زبر الاولين » ، فبكل لغة قد نزل كلام الله ووحيه ، وقد أنزل التوراة ، والانجيل ، والزبور . وكلم موسى عليه السلام بالعبرانية ، وأنزل الصحف على ابراهيم عليه السلام بالسريانية ، فتساوت اللغات فى هذا تساويا واحدا •• وأما لغة أهل الجنة ، وأهل النار فلا علم عندنا الا ما جاء النص والاجماع فى ذلك » (٤) •

(١) ابن حزم الاحكام فى اصول الاحكام طبعة الخانجى ج ١

ص ٣٣

(٢) المصدر السابق ص ٥٣

(٣) المصدر نفسه ص ٣٤

(٤) المصدر نفسه ص ٣٤

وما قاله ابن حزم يؤيده الدرس اللغوي الحديث يقول سابير (١)  
« لا معنى لان نقول أن هناك لغة — مهما تكن — أكثر فصاحة أو أكثر  
ارتباطا من لغة اخرى قد تكون أكثر تعقيدا أو أكثر صعوبة » .

وقد أشرنا من قبل الى أن اللغوي الحديث لا يحاول تفضيل لغة  
على أخرى ويذكر بعض الباحثين في اللغة أنه من المسائل التي نحاها  
علم اللغة الحديث في التفضيل (٢) . والواقع أن الاسراف الذي  
وجدناه كان له أثر كبير في بعض وجوه أسرار النظام اللغوي ولذا  
عينا به . وما نريد أن نؤكد أنه لا ينبغي أن يغيب عنا أن اللغات  
تتفاوت في أنماط نشأتها وتطورها ، ولكل لغة أسلوب خاص في تأليف  
الالفاظ والتراكيب ، والمألوف في لغة ما قد يكون مستهجنا في غيرها ،  
يدل على ذلك أن طائفة من الاصوات تجتمع وتتناسق في ألفاظ بعض  
اللغات على حين تأتي التجمع والتناسق في ألفاظ لغات أخرى وبعض  
علمائنا قد أدرك الفروق الدقيقة بين اللغات المختلفة ووجه الانظار  
الى ما يعد من كلام العرب ، وما يرى أنه ليس من كلامهم وهذه  
نظرة لها اهميتها في مسألة التفضيل ترفض ما يقوله الغلو ، أو ما يقرره  
الاسراف (٣) .

---

Sapir (Edward) : Culture, Language and Personality (١)

Califorina 1960 P. 6

(٢) د. محمود السعران : علم اللغة : مقدمة للقرىء العربى

ص ٣٧٩

(٣) ابن دريد : الجهرة المقدمة ص ٦